ـ الليلة ايضا ، وفي نفس الوقت .

مرة ، حاولت ان ارى ما يحدث داخل الجدران الاربعة المتصالبة في كآبة ، وضعت عيني بكل بساطة في ثقب الباب ، ورحت افتش عنهما .

كانا غارقين في العتمة . وكان ضوء الطريق ينفذ عبر زجاج النافذة، فيسمح للاشياء القليلة المبعثرة في الغرفة القذرة ان تخلق ظلالا باهتة، ولكنها موحية ، وهكذا .. اصبح للغرفة ، كما خيل الي للوهلة الاولى، بهاء منقطع النظير ، لم اكتشفه من قبل، فتطامنت لحظة ، لحظتين ، الا ان جلستي تلك وعيني المفتوحة على ما يجري في الداخل .. كانتا تسممان كل شيء بالتدريج ، وتضيفان الى المشهد شخصا ثالثا غير مرغوب فيه.

ولم اكن ارى سوى عيني الفتاة المتقدتين في الغرفة كنجمتين ، ولا ادري لماذا استعادت ذاكرتي بسرعة كل العيـــون النسائية التي مـرت بـي. كنت اعجب بعيون النساء لاتساعهـــا او لزرقتها ، ولكن هاتين العينين المضيئتين قد وضعتاني امام نوع جديد من الاعجاب ، نوع مشوب بالقلـق يثير في اسى عميقا لا اعرف مصدره ، وهكذا .. وفي لمحة عين وجـدت نفسي وجها لوجه امام عملية شائنة ، اشارك فيها مشاركة لا حدود لها .

وبدأ وخز صغير يتحرك في صدري، منذ تلك اللحظة، وهممت بان اطرق الباب فاستدعي سامي ، واسأله ان يكف ويمضي ، يأخذ الفتاة الصغيرة التي اثارت شفقتي ، ولكنني ترددت اذ سمعت صوته :

ـ هل تعجبك الغرفة ؟ نحن ها هنا بعيدان عن ماما وعن بابا ..

وسمعتها تجيب في استحياء :

ـ نعم .

وخيل الي ان هذا الصوت الرقيق .. قديم ، كأنه يخرج مـــن بئر ، وتساءلت في نفسي : اهكذا تضعف البنات عادة امام الرجال ؟

كانت الفتاة جميلة ، بيضاء وصغيرة ، ولقد قدرت ، منذ رأيتها ، انها لم تتعد السابعة عشرة بكثير ، تلبس ثوبا مدرسيا خيط باناقة ، وتبتسم بروعة مذهلة لاتفه الاسباب ، ولم اظن بها ، للوهلة الاولى، ظنا سيئا مبالغا فيه ، فلقد قدرت ايضا انها واحدة من فتيات دمشق اللواتي يستجبن الى المغامرات الغرامية العابرة التي لا تترك اثارا ، وسرعان ما قطعت برأيي هذا ، حين رأيتها تنكمش في زاوية الغرفة خائفة مترددة .

كان سامي ، وقتئذ ، يقترب منها ، ولقد سمعته يقول :

ـ تستطيعين ان تتمددي ، ان تضعي رأسك على كتفي .

ولم تقل الصبية شيئا ، وانما لاذت بالصمت ، وكان للهاثها صـوت مسموع . وفي لحظة خاطفة .. تمنيت لو انني كنت مكان هذا الشـاب الذي يعرف ، على ما يبدو ، كيف يأسر قلوب الفتيات ، ولكنني كففت عن التمني في الحال .

ورأيت سامي يقترب منها ...

ورفعت عيني عن ثقب الباب كمن لسعه تيار كهربائي مفاجيء، واحسست بدوار حقيقي وبانني مذهول .

كنت احاول ، دائما ، ان اجتاز الايام بحذر متشبثا باشياء كثيرة عـن الشرف والكرامة والمثل الرفيعة ، حفرت في عروقي ، منذ الصغر، حفرا.. بسبب من وجودي في وسط ريفي يقدس اشياء من هذا النوع ، ولكنني في تلك اللحظة بالذات ، شعرت بانني اقذف بنفسي في اعماق اللجة ، وانني اصبحت عرضة لخوف صغير ، بدأ يتسرب الى صدري بسبب مـن اشتراكي غير المباشر بهذه العملية القذرة التي يوشك ان يرتكبها سامي في غرفتي ، وهكذا .. واثر لحظة زمنية لا ابعاد لها ، مضت ثقيلة ، وجدت نفسي مدانا .

ولم ادر ماذا افعل ..

ونزلت الى الشارع سريعا ، واندسست بين الناس الذين خرجوا فـي تلك الامسية الصيفية المقمرة ، احمل بين جنبي الما لا حد له .

لماذا لم اتدخل ؟ انني متردد ، جبان ، منكمش ، منطو على قذارة عجيبة لا تعدلها اية قذارة في العالم ، فلقد افسح هذا الامل الصغير الذي انبته سامي في ، فجأة ، مكانه لجرثوم مخيف بدأ يغزوني بالتدريج ، فانـــا الساعة احمل شعورا جريحا وكبرياء مسحوقة ، ومثلا معرضة لان تبتلعها قرارة سحيقة .

كان الناس لا يعبأون بما في وجهي من مرارة، يسيرون، يتسكعون، واحيانا كانوا يقفون امام واجهات المحال يثرثرون اعجابا او سخطا ، ثم يعاودون المسير كأنما لا اهداف تنظم سيرهم ، وكأن لكل منهم مشكلة اخرى، يحاول قتلها بهذا العبث الذي لن ينسى الحقيقة الرهيبة .

وتصورت صديق طفولتي الذي خلفته في الغرفة مع الصبية، يلهثـان وراء كل قبلة ، وكيف انه سيختلط بعد قليل بالناس ، هؤلاء الناس انفسهم وكيف انه سيلقي عليهم التحية :

ـ مساء الخير ..

ببراءة طفل ، ودون ان تختلج في وجهه عضلة ، كأن حرمة لم تنتهك، وغرفة لم تدنس ، وكرامة انسانية لم تبدل بامل ، مجرد امل زرع فـــي صدر رجل صغير ، فيلقاه الناس هاشين باشين ، على وجوههم احترام قديم ، لا تزيله الخطايا المجهولة المصنوعة في غرفة صغيرة ، واطئة السقف صاحبها صديق معوز ، عاطل عن العمل .. مع فتاة طفلة ما تزال .

خيل الي انني اشم رائحة دم فاسد يجري خطأ في الشرايين والاوردة.. وانا اخترق الرصيف المزدحم بالناس ، وخيل الي ان هذه الرائحة تتكاثف في انفي كثافة جنونية ، تدفع على ان اقوم بمحاولة انقاذ لنفسي .. على الاقل .

وهكذا ، وفي لحظة صغيرة ، تهيأ لدي من الاسباب ما جعلني اعود الـى البيت .

ـ الليلة ايضا ، وفي نفس الوقت .

منذ هبط المساء ، وانا انتظر ..

جدران الغرفة الكئيبة باردة ، ومع ذلك .. فا ح لم يكن قد هطل هذا الشتاء بعد . ان شهرين شتائيين قد يمران قبل ان ارى الثلج البيضاء تتساقط من وراء زجاج الشباك المطل على الزقاق ، وها انذا ملقى دونما حركة ، ينفذ البرد الى عظامي ، ويذبحني هذا الانتظار المخجل الغريب ، لقد مات في كل حس ، ولكن عيني ظلتا تتألقان في العتمةكنجمة الصباح التي تبرق على اخر حدود الليل ، ولعل من الغريب حقا ان اتخيل عيني هاتين ، وقد انفصلتا ببطء عن جسدي ، وحومتا حول جثتي الملقاة على البساط .

واصخت بمسمعي جهة الباب ..

كان من عادة سامي ان يطرق الباب قبل ان يدخل ، وكان علي ان افتح بسرعة ، وان ابتسم للصبية ابتسامة مطمئنة ، ومن ثم اتناول بضع ليرات من الكف المبسوطة في وجهي ، واذهب بها الى السوق ، واعود مسرعا بسلة ملأى بالفواكه ، واحيانا بقنينة نبيذ معتق .

قلت لنفسي : لسوف يأتيان بعد لحظة ، وسيتكرر التمزق في داخلي. بت اكره القيام بهذه المهمة غير المشرفة ، ولكنني كنت مشدودا الى الامل الغريب المعقد الذي نماه سامي في مع الايام :

ـ غدا .. اجد لك عملا يا احمد .

ستدخل بعد قليل بقدها المشوق ، ستحييني بادب جم ، وببراءة طفل صغير :

ـ مساء الخير .

وسأرد :

ـ مساء الخير .

وانسحب ، كالعادة ، الى الخارج ، وعلى فمي ملامح ابتسامة ذليلة ، متكلفة ، وفي عيني بقايا نظراتها الحزينة ..

لشد ما تقلقني عيناها . لقد خيل الي ، منذ رأيتها ، انهما حياديتان، ولكنني اكتشفت فيهما حزنا ملوثا وحيرة بدائية تشبه الى حد كبيرحيرتي، ولطالما تساءلت : ترى ، هل احست هي الاحساس نفسه بالنسبة لي ،هل اكتشفت عيني كما اكتشفت عينيها ؟

كنت احلم بان اقول لها كلمة واحدة صريحة في هذا الشأن ، ولكنني .. كنت اكف دائما ، اذ لم يساورني الشك قط في انها تأخذ الامر مع هذا الصديق على انه جد : حب حقيقي ينتهي بالزواج .

سأتركهما في الغرفة وحيدين ، كالعادة ، وسأمضي الساعة الاولى في التسكع ، وسألبس الموقف كله ، كالعادة ايضا ، غلالة شفافة من عدم الاكتراث ، ومن ثم اعود لاقعي ككلب حراسة مدرب امام الباب .

سأنصت الى حديثهما ، وفي بعض الاحيان سأضع عيني في ثقب الباب لثانية او لثانيتين ، ومن ثم .. سأرفع رأسي مبتسما ابتسامة ما زالت تكبر في اسى على شفتي .

ولست واثقا من ان الخجل القديم قد تبدد ، ولكنني على ثقة من ان لطخة قد وضعت اثارها في عيني ، انني ، الان ، اقل شعورا بفداحة ما يجري في الغرفة ، وحتى السؤال الذي كنت اوجهه الى نفسي باستمرار : « لماذا سمحت لهما بالدخول ، هذه المرة ؟ » قد مات ، واحتل مكانه السؤال المألوف : « هل طرأ جديد في موضوع العمل يا سامي ؟»

لقد كنت اعتقد، في البداية ، ان من الخطأ .. ان آتي بهما الى الغرفة، وكان هذا الوعد المهدور الملآن بالكلمات الرنانة :

ـ غدا .. اجد لك عملا يا احمد .

لا يمنحني تبريرا كافيا بان ادفع الثمن خجلا مستمرا ، وكرامة مهدورة دونما رأفة، ولكن الامر .. حدث على نحو مفاجيء وسريع ، فقد جاءني سامي الى مقهاي على عجل ، وهمس في اذني:

ـ اعرف انك تعيش وحدك .

قلت :

ـ نعم .

قال :

ـ اريد أن ازورك .. زيارة خاصة .

ولم اتردد قط في ان اضع شيئا من الاهتمام على وجهي . كان سامي صديق طفولة قديما ، زاملته سنة ثم نبذته ، بسبب من تباين طريقتينا في العيش ، او بسبب من عدم انسجام ثيابه الجديدة الجميلة مع ثيابي البالية الباهتة الالوان باستمرار . وكنت اذا اجتمعت به .. بادلته تحية مقتضبة بتحية مترفعة من جانبي .

قلت : .

ـ منذ متى وانت تهتم باصدقائك القدامى ؟ انت في واد ، وانا في اخر، وان شئت الصدق فانا اخشى ان تتقزز من مظهر غرفتي .

قال :

ـ ترفض اذن ؟

قلت :

ـ اردت ان اقول ان الغرفة ليست مما يناسب المقام .

قال :

ـ انت صديقي ، والصديق خير من يقدر الظروف ، انني لا اريد قصرا وانما مكانا امينا ومجهولا .

تاريخ
الفلسفة العربية
بقلم
هنا الفاخوري
رئيس كلية لبنان
خليل الجر
دكتور في الفلسفة
كتاب جديد يتناول بالبحث الرصين ، والتحليل الوافي ، جذور الفلسفة العربية ، واهم مدارسها وأشهر رجالها بالاستناد الى أوثق المصادر ، والى النصوص المحققة
يطلب من
دار المعارف ـ بيروت
بناية العسيلي السور ص.ب ٢٦٧٦ ـ تلفون ٢٢٥٧٤
ومن جميع المكتبات الشهيرة

وضحك بعصبية ، حتى بدت اسنانه المكسوة بطبقة من القلح صفراء بغيضة ، ولم اضحك ، وانما حدقت في وجهه الناعم القسمات كوجوه البنات ... كمن يرى من بعيد الى معالم جزيرة نائية مجهولة . كان انيقا الى درجة تبعث على الضحك ، وكاملا .. حتى انني حاولت لمدة دقيقة ان اكتشف فيه نقصا فاضحا ، ومع ذلك .. فان رائحته لم ترق لي على الاطلاق ، ولو ان لهفة حديثه معي .. كانت اقل قليلا ، لصددته بكبرياء .

وسرنا معا ، اجتزنا « سوق الخجة » الرطب المعتم الى « السنجقدار » كان الهواء ساكنا ثقيلا ، والارض تلتهب من وهج شمس الظهيرة ، والحوانيت مغلقة الابواب ، والناس يحثون الخطى نحو الظلال ، يحملون وجوها قلقة متعبة كوجهي ، والباعة الصغار يتثاءبون من النعاس ولا يتحركون ، وقضيبا الترام يلمعان في الضوء كافعيين دفع بهما القيظ الى التمدد على قارعة الطريق ، وكنت افكر ، وقتئذ ، في تعذيبه على طريقتي : ان نسير دونما حديث على الاطلاق .

وحين وصلنا الى « ساحة المرجة » سألني :

ـ هل الغرفة بعيدة ؟

كان لهفا ، تقفز عيناه وراء معالم الطريق الذي يؤدي الى غرفتي .

قلت ساخرا :

ـ هل تعبت ؟ نسيت انك لا تسير كثيرا على قدميك .

وقال متجاهلا سخريتي :

ـ اين تسكن ؟

ـ في « البحصة »

ـ ماذا تفعل الان يا احمد ؟ اما زلت تعمل معلما وكيلا ؟

ـ كلا . انني افتش عن عمل منذ خرجت من الجندية .

ـ هل وجدت ؟

ـ ابدا .

ـ لماذا لا تعود الى القرية؟

ـ اعتدت على سكنى دمشق

ـ ولكن السكنى في دمشق تكلف كثيرا

ـ وهل يهمك انت ؟

ـ انا اقصدك انت

ـ هل يرضيك اذن ان اقول : ان حالي لا تسر على الاطلاق

ونظر الي ، وقال بسرعة .. كمن هبطت عليه فكرة مفاجئة :

ـ اسمع يا أحمد . سأجد لك عملا خلال يومين او ثلاثة .

وشعرت ان هذا الوعد لم يكن صلبا ، كان اشبه بماء سفح على بلاط ساخن فتبخر بعد لحظات ، ولكنني تشبثت به فجأة .. لعل وعسى .

وقلت لسامي بكلمات متنقاة :

ـ هل تجد لي عملا .. حقا ؟ انا اعرف ان اباك رجل قادر ، اما انت فما ازال اذكر كذباتك الصغيرة ، وقت كنا في المدرسة ..

كنت ، وانا اقول هذا ، في اشد حالات ضعفي واستسلامي ، فانا امضغ كل يوم مرارة التفكير في توضيب اللقمة ، واحيانا مرارة الصبر على الجوع.. ريثما يمدني اخي المقيم فيالقرية بنجدةصغيرةلا تقدم ولا تؤخر

وقال سامي معاتبا :

ـ الله الله يا احمد . كنا في المدرسة صغارا ، اما الان ..

وغرقت في نعمة الامل الذي زرعه سامي في صدري. كنت قد امضيت عقب خروجي من الجندية الاجبارية خمسة شهور طوال دون ان اجد عملا، وكانت كل دقيقة تنضاف الى هذه الشهور الخمسة تحفر في اعصابي يأسا جديدا وشعورا بالانهزام في هذه المدينة الكبيرة التي يسير الاقدار فيها عفريت اعمى متعصب لسطوته وجبروته ، ويوزع بخيره وشره ، حبه وبغضاءه ، على الناس دونما عدل ، وجاء هذا الوعد :

ـ غدا ، اجد لك عملا .

وفرحت . غدا يا احمد تجد عملا ، غدا تمر في الشارع رافع الرأس، باذخ الجبهة ، تحدث الباعة الصغار سادة الشوارع ، تشتري دمية رخيصة لفاطمة الصغيرة ابنة الجيران التي تتعلق بذراعك كلما تسللت الى الغرفة هربا من امها الطيبة ، غدا تتابع بنظراتك النسوة الجميلات اللواتي يأتين باولادهن الى مخزن «باتا» لشراء احذية لهم ، جارّات وراءهن روائح ذكية ، تضحك في وجوههن ، تفتش عن صبية تتزوجها لتعيش الى جانبك مذهولة بدأبك وانت فخور بما تصنع ، تجيل طرفك بالغرفة التي عشت فيها ، بالاشياء التي اذبت عمرك لتحصل عليها . غدا تدخر مالا كثيرا يا احمد . غدا تضحك الدنيا في وجهك ، فلماذا انت كئيب هكذا ، مطفأ التعبير ، تحمل عينين تتحركان بسرعة ، دونما هدف ؟.

ولاول مرة ، منذ جاء سامي ، ضحكت .

وعندما وصلنا الى الغرفة ، دفعت به الى داخلها ، وانا اقول مازحا :

ـ هذا هو قصر « الاوريان بالاس » يا عزيزي !

وضحك ، ومر ببصره على الغرفة مرا سريعا ، وخصني بنظرة ، خيل الي انها نظرة امتنان ، فشعرت بشيء من السعادة وبشيء من الزهو .

ـ الليلة ايضا ، وفي نفس الوقت

ستة اشهر مضت وانا اسمع طرقا على الباب ذا نغمة واحدة لا تتبدل مما افقدني الشعور باهمية ما يجري في الغرفة . لقد تبلدت حواسي، وغدوت سجين كلمة واحدة ، تخرج من بين شفتي هذا الصديق الذي دس الذل بين ثنايا وعده المكروه المؤلم :

ـ غدا ، اجد لكعملا.

وعلى الرغم من ان زياراته الكثيرة المستمرة الى غرفتي في الليل ، قد اظهرتني ، بالتدريج ، على مضمون هذا الوعد ، فعرفت انه ثمن لم يدفع بعد ، لسكوتي عن الاهانة التي تلحقني كلما اضطجع جسدان في غرفتي، فقد كنت مستعدا للسكوت مدة اخرى، ما دامالامل المزروع.قائما.

وسمعت الطرق على الباب فجأة ، ولم أشك قط في صعوبة الطارق ، وقمت متخازلا :

ـ مساء الخير يا احمد .

ـ مساء الخير .

وجمدت تحية المساء على شفتي . كان سامي يمسك بيد فتاة اخرى ، غير تلك الجميلة البيضاء الصغيرة ، فتاة شقراء نحيفة ، قلبت شفتيها اذ رأتني بذقني غير الحليقة ، وشعري غير المرجل ، ولا اعرف كيف استقبلتهما ، ولكنني واثق من ان حقدا اسود أطل من عيني ، لقد شعرت بشوق كبير الى تلك الصبية التي تبتسم باستمرار ، والتي قاسمتني ، بالتدريج ، حيرة وحزنا دون ان نتبادل كلمة عزاء واحدة . كان وجودها في غرفتي كافيا لاخماد ثورتي المكبوتة ، أما الان ، وقد زالت الاسباب ....

واحس سامي بكل شيء ، وقال لها ملطفا الجو :

ـ هذا هو احمد ، صديقي العظيم الذي حدثتك عنه .

وضحك ، ولم يشأ ان يضع عينيه في عيني ، كان يعرف حقيقة ما يجول في صدري ، اما انا ، فلقد كنت مهيأ للانفجار في اية لحظة ، ولعله ادرك ذلك .. اذ لم يدفع في وجهي كالعادة ليراته الوسخة ، لاذهب بها الى السوق ، واعود بالفاكهة والنبيذ المعتق ..

ودخلا ..

وبدا سامي مترددا لاول مرة كمن يخشى غضبة ما، يتوقع ان تقذف في وجهه في لحظة قريبة قادمة ، كان يبتسم بين حين وآخر ، ابتسامة متكلفة ، ومن ثم يعابث الصبية الجديدة عبثا لا روح فيه ، وكانت الصبية تحدق في بعينين خائفتين ، حزينتين كعين مسيح مصلوب ، ولست ادري لماذا شعرت بموجة من الرثاء تغمرنا جميعا في تلك اللحظة .

كنا مشدودين ، أنا وسامي والصبيتين ، الى حاجات غامضة غائصة في أعماقنا ، تنظم علاقة كل منا بالاخر ، وكان احدنا يخشى أن يفقد هذه الحاجة فيمسي خارج الدائرة التي فرضت عليه فأصبحت قدره ، ولم أكن ، أنا نفسي واثقا من ان اعصابي تستطيع ان تتحمل تبدلا طارئا في نوعية الذل الذي روضني عليه سامي البدء وبالتدريج، وهكذا ، بدوت تلك اللحظة مستعدا لان ادق براسي الجدار الصلب دقات عنيفة حتى يتحطم .

ساقعي كالكلب من جديد اذن ، لارى الى العملية تمثل على النحو نفسه مع فتاة اخرى ، مبتدئة ، تفكر بقسوة في ان تبذل كل ما تملك من امكانيات لترضي هذا الشاب الانيق ، الطيب في الظاهر ، الذي يستطيع أن يشتري لها ثوبا كل يوم .

وحاول سامي ، ثانية ، ان يلطف الجو . اخرج من صدره الخدر المألوف الذي اعتاد على ان يخدرني به ، وقال بلهجة ساخنة فيها وجل حقيقي :

ـ بشراك يا احمد . لقد وجدت لك العمل الذي تريد .

وسكت لحظة ليرى وقع كلماته ، ثم قال :

ـ بعد قليل سأسرد لك كل التفاصيل .

ولم اعد ارى بعيني شيئا واضحا . كانت هذه هي فرصتي الوحيدة لاتخلص من هذا الذل ، او اخمد الى الابد ، وكان علي أن اجري موازنة دقيقة بسرعة ، أن أضع في كفة ميزان ذلا جديدا مستمرا ، وفي كفة اخرى العمل المعروض علي ، وخيل الي أن عيني سامي تتابعان المعركة التي تدور في داخلي بتحفز لا حدود له ، كنت أعرف ان القرار الذي ساتخذه سيحدد الى امد قصير هذه الرقبة التي روضت على الانحناء، لذلك وقفت وسط الغرفة مشدوها ، كأبله حاسر الرأس يعرض نفسه لشمس الظهيرة .

هل أصرخ في وجهه :

ـ اخرج ، لقد لوثت كل شيء .

ام ارضخ كشاة وقفت بين يدي الجزار ، ومن ثم اضطجع على الباب، حالما بالغد المثقل بالخبز والادام ؟

وبسط سامي كفه ، في محاولة لمنعي من الاستمرار في التفكير ، وقال :

ـ خذ .

ودونما أية كلمة اعتراض ، أخذت المبلغ بيد ترتجف ، ونزلت ..

كان المساء مخيفا ، وكانت قبضة يدي ملأى بالثمن .. ثمن الفاكهة والنبيذ والاشياء الاخرى ، وفي هذه الساعة الشتائية المليئة بكل ما تحتويه ساعة مماثلة من عذوبة وحب متبادلين بين الناس ، ومن امال والام مشتركة .. كانت أحزان الرجل الصغير المختزنة في صدري تدق الباب دقا ملحاحا دونما جواب على الاطلاق ، وكنت اغيب في عتمة الشارع شيئا فشيئا .

دمشق — عادل ابو شنب

الكتاب الذي يفضح الاسلوب الاستعماري الفرنسي
ويكشف عما تركته الوحشية الفرنسية من فظائع في
الجزائر ويحلل نفسية المستعمرين اصدق تحليل